ترجمة المرحوم عبد الله المرّاش

هو الطيّب الذكر عبد الله بن فتح الله المرّاش وشقيق المرحوم فرنسيس المرّاش الشاعر الكاتب المشهور من أُسرةٍ عريقة في الفضل والوجاهة معروفة بالعلم والادب وُلد في حلب في ١٤ مايو سنة ١٨٣٩ ونشأ بها وتأدّب على والدهِ وغيرهِ فتاقى في حداثتهِ مبادئ علوم العربية والخط والحساب ثم دخل في اعمال التجارة فتخرّج في ابوابها وفنونها ولما بدت نجابتهُ فيها انتدبهُ جماعةٌ من جلّة تجار حلب لعقد شركة تجارية ينشئ لها محلاً في منشستر من بلاد الانكليز فسافر اليها سنة ١٨٦١ ولبث بها الى سنة ١٨٦٩ واشتهر بما كان عليهِ من الامانة والدراية فكان لهُ مقامٌ محمود بين معامليهِ من ارباب

التجارة واحرز منها ثروةً صالحة . وفي تلك السنة تمّ فتح خليج السويس فاستشفّ من ورآء هذا الفتح انهُ سيكون ضربةً قاضية على تجارة حلب لانهُ قدّر ان البضائع التي كانت تُرسَل اليها فتحملها القوافل برًّا الى نواحي العراق وبلاد العجم لا بدّ ان تُرسَل بعد ذلك بحراً عن طريق السويس ثم البصرة ولهذا السبب واسبابٍ اخرى نوى العدول عن التجارة بتّةً وشرع في حلّ الشركة وتصفية اعمالها . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها بين الفرنسيس والالمان سنة ١٨٧٠ انتقل الى باريز فأقام بها الى سنة ١٨٧٩ ثم عاد الى منشستر لبعض الشؤون فلبث بها الى سنة ١٨٨٢ وبعد ذلك فارقها فاتى مرسيليا والقى بها عصاهُ ولم يزل مقيماً بها الى ان توفاهُ الله اليهِ في اواسط الشهر الغابر من هذه السنة على ما تقدم لنا ذكرهُ في الجزء الماضي

هذا مجمل ما يُذكر من تاريخ هذا الرجل وما تقلب فيهِ من اطوار الحياة وقد عبرت ايامهُ كلها على السكينة والدعة لانهُ كان قليل المزاحمة والتطالّ الى بعيد الشؤون والتفاني في معالجة الحظوظ وابتغآء الشهرة والمقامات العلية بالاكثار من الجلبة والحراك على انهُ كان على حظٍّ من الدنيا بلغ بهِ مبلغ الرضى وهو الغنى كلهُ فلم يكن بعد ذلك يحرص على حشد الدينار ولا يعاني الكسب ولكنهُ انصرف الى المطالعة والتوسع في العلم وهو ما لم ينقطع عنهُ قطّ مع اشتغالهِ بالتجارة ايضاً فانهُ كان كثير الاختلاف الى مكاتب لندرا وباريز يتصفح ما فيها من الاسفار قديمها وحديثها ولا سيما الخطّية منها فادرك حظًّا وافراً من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم وانتسخ منها عدة كتب عزيزة نذكر منها كتاب يتيمة الدهر للثعالبي وهو مصنّفٌ ضخمٌ يكون نحواً

من الف وخمس مئة صفحة كبيرة انتسخهُ من مكتبة باريز ثم عارضهُ بنسخة لندرا واشار الى مواضع الفرق بين النسختين ونبه على ما وجدهُ مبايناً للصحة من غلط النساخ مما استدركهُ بنفسهِ وبعد ذلك عارضهُ بالنسخة المطبوعة في دمشق بعثنا اليهِ بها من القاهرة وبعد ان جمع بينها وبين نسختهِ ردّ الينا نسختنا وقد تتبعها صفحةً صفحةً وسطراً سطراً وعلّق على هوامشها كل ما وجدهُ من الفروق والزيادات وغيرها فكانت كل واحدةٍ من هاتين النسختين اصحّ نُسَخ هذا الكتاب . ولكن.....

وهناك كتبٌ ورسائل اخر كلها من غُرَر آثار الاقدمين ونوادر تآليفهم انتسخها بخطهِ مع العناية والتدقيق في مقابلتها وتصحيحها وكان مليح الخطّ نقيّ الرقعة كثير التأنق كاكثر خطّاطي حلب وكان يكتب اولاً بقلم من القصب الهندي وهو شديد الصلابة لا يكاد يتشعث ولا يتغير ثم صار يكتب باقلام الحديد ولذلك ترى خطهُ من اول الكتاب الى آخرهِ واحداً

وكان رحمهُ الله من اكابر اهل الانشآء حسن الترسل سهل العبارة واضح الاسلوب بصيراً باختيار الالفاظ والتراكيب حسن النقد حريصاً على البلاغة ووضوح المعاني آخذاً بالنصيب الاوفر من قوالب فصحآء العرب والفاظ الخاصّة من اهل الادب . وكان مع ذلك متقناً للّغة الانكليزية والفرنسوية والطليانية يكتب فيهنّ جميعاً وكان لهُ باعٌ طويل في التأريخ والفلسفة وعلم الاخلاق والاديان والشرائع المختلفة مشاركاً في كثيرٍ من علوم المعاصرين كالطبيعيات والهيئة وسائر الفنون الرياضية وكان بصيراً بالسياسة مطلعاً على اسرارها ودقائقها ولهُ في كل ذلك مقالاتٌ ورسائل شتى منها ما هو باقٍ

بخطهِ ومنها ما نُشر في بعض الجرائد العربية في لندرا وباريز وجرائد ومجلات القطر المصري واشهر ما طُبع لهُ منها مقالة التربية التي نشرناها تباعاً في مجلة البيان وهي قريبة العهد من القرآء فلا حاجة الى الاطناب في وصفها . واما النظم فانهُ مع تضلعهِ من فنون البلاغة وكثرة ما كان يحفظ من اشعار العرب والمولدين ومع اشتهار بيتهم بالشعر كان قليل الرغبة فيهِ والمعاناة لهُ ولا سيما مع ما بلغ اليهِ الشعر في هذا العصر من الانحطاط والتفاهة ومع قلة المميزين بين جيّدهِ ورديئهِ

واما صفاتهُ الشخصية فقد كان ربعة القوام معتدل الجسم ابيض اللون طلق المحيّا فصيح اللسان مهذب المنطق واسع الرواية لطيف المحاضرة وقد أُتيح لنا لقآؤهُ عند مرورنا في مرسيليا في اواخر سنة ١٨٩٥ وهو في نحو السابعة والخمسين من عمرهِ وقد عممهُ الشيب وانضجتهُ السنّ والتجربة فالفينا فيهِ رجلاً جليل القدر كامل الصفات قد جمع بين رزانة الانكليز ورقة الفرنسيس واريحية العرب . وكان على اعظم جانب من الزهد وخفض الجناح بعيداً عن الزهو والخُيلآء منزهاً عن الدعوى والكبر حتى انهُ مع سعة فضلهِ ورسوخ قدمهِ في العلم والانشآء واجماع المطالعين على استحسان كلامهِ كان يتفادى من ذكر اسمهِ في اكثر ما كتبهُ وما طُبع لهُ ويشترط ذلك على من يروم نشر شيءٍ من آثارهِ وهذا ولا جرم من عنوان تمام فضلهِ وتناهيهِ في الكمالات الانسانية لانهُ لم يكن يتوخى فيما يكتبهُ الا نشر فائدة او تقرير حقيقة دون ابتغآء الشهرة والتهالك على طلب الاطرآء . وعندنا من آثار قلمهِ رسالتان احداهما جمع فيها فوائد متفرقة في علم الهيئة وتخطيط

الارض والثانية عرّب فيها خواطر الدوك دلا رُشفوكو[1] في الاخلاق والآداب وكان قد بعث الينا بهذه الرسالة من مرسيليا بتاريخ ٤ آب (اوغسطس) سنة ١٨٩٠ يستطلع رأينا فيها ومعها كتابٌ يقول في جملتهِ ما نصهُ

« كنت في اثنآء اقامتي بباريز قد عرّبت كتاباً للدوك دلا رُشفوكو دعاهُ بالحكم والخواطر السانحة وهذا المصنّف من رجال القرن السابع عشر جمع بين السيف والقلم وكان من اهل الحظوة المقرّبين الى الملك ومن عظمآء اهل البلاط فكان في اثنآء مخالطتهِ الجند ومعاشرتهِ اهل البطانة يرى في اخلاقهم وعاداتهم من الريآء والفساد ما ينكرهُ وتسنح لهُ في ذلك خواطر ومعانٍ شتى فيعبّر عنها باسلوبٍ بديع ويقيدها في دفترهِ على ما تعنّ لهُ من غير تبويب ولا ربطٍ بينها ولم يزل على ذلك حتى بلغت هذه الفقر الى خمسمائة واربع ثم نشر هذا الدفتر فأُعجب بهِ الناس حتى عدُّوهُ في جملة كتب الادب التي يُقتدَى باساليبها ويُتخرّج عليها في فن البلاغة وكان اشدّ ما اعجبهم من خواطرهِ تعريفهُ الريآء بانهُ استكانة الرذيلة للفضيلة او اقرار الطالح بفضل الصالح. ثم نُقل هذا الكتاب الى سائر لغات الافرنج على ما فيهِ من خواطر لم يبقَ لها في عصرنا هذا ما يسوّغها

« وقد عنّ لي اليوم ان ارسل اليكم بانموذج من هذا التعريب فان وجدتموهُ من سقط المتاع وغالب ظني انهُ كذلك نبذتموهُ ظهريًّا وان وجدتموهُ خليقاً بان يطّلع عليهِ الناس فلا تضنّوا عليَّ بما يجرّئني على نشرهِ .. وفي عزمي ايضاً ان الحق بهِ ما عرّبتهُ ترسلاً من منظومةٍ في النصائح لاحد

---

(١) Duc de Larochefoucauld

الافرنج المتقدمين وهاكم انموذجاً منها

« ليس ما نشاهدهُ من الانسان هو الانسان بل هو السجن الذي سُجن فيهِ والقبر الذي واراهُ والفراش الواهن الذي هوَّم عليه

« ولا الانسان ما تراهُ من هذا الجسد الفاني وان راعك منهُ حسن الاعضآء وجمال الجثمان بل هو اجمل من هذا كلهِ ولذا ادّخرهُ الله لحضرتهِ

« وفي الجملة فما يُدعى بالانسان انما هو شعاع الالوهية ذَرَّةٌ من الوحدة الربانية قطرةٌ من فيض العين الازلية

« فاعترف ايها الانسان بأصلك ولا تزدهينَّك الدنيا بل احتقرها فانك نباتٌ سماويٌّ وحقك ان تزهر في العُلَى

. . .

« اذا نظرتَ الى المنافق وهو بوجههِ المستعار آليتَ انهُ اشدُّ الناس تورُّعاً وهو يتسلل مع ذلك في الحنادس طالباً جارتهُ ليغويها

« اخجل من الناس وكن من نفسك أخجل لان عار زلّاتك لاصقٌ بك وانت بوصمتهِ أولى والليبب من كان عليهِ من نفسهِ رقيب

« خذ بيد المسكين وأحسن اليهِ فان الله يبارك في مال المترآئف على المساكين ويغيهِ

« ليت شعري ماذا تنفعك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في خزائنك وتعدُّد الملابس الفاخرة في أَصونتك ووجود الحنطة والشعير طيساً في اهرآئك ووفرة دنان الخمر المعتَّقة في مخازنك

« والمسكين الواقف على عتبة بابك عرياناً خرصاً خائر القوى من

الجوع لم يفز منك بكسرةٍ لسدّ رمقهِ فرجع خائباً من جدوالك منكسر القلب كاسف البال

. . .

« من توهَّم بمجرَّد زعمهِ انهُ حكيم فعُدَّهُ من جملة الحمق ومن ادَّعى العلم فاختبرهُ وامتحنهُ فلن تجد عندهُ الا الكلام الفارغ

« اذ كلما ازداد المرءُ علماً ازداد لنفسهِ اتّهاماً واخو الفضل لا يفتخر »

انتهى نصّ كتابهِ رحمهُ الله مع اسقاط اشياء منهُ دلّت على تناهيهِ في التواضع والرقة وكان يودّ ان نتولى لهُ طبع الرسالة المذكورة في احدى مطابع بيروت لعدم وجود مطبعة عربية في مرسيليا ولكن عرض اذ ذاك ما حال دون انفاذ رغبتهِ من حدوث المراقبة على المطبوعات في الديار الشامية واحالة الاذن فيها على مجلس المعارف بالعاصمة ثم عرض لنا بعد مصيرنا الى هذه الديار من العُقَل التي اكثرها معلومٌ عند القرآء ما شغل الذرع عن التفرُّغ لغيرهِ وبقي الجزء الذي بعث بهِ الينا منهـا الى هذه الايام ونحن مثبتون في هذا الموضع اشياء منهُ ايذاناً بفضلهِ وان قُدّر لنا الظفر بتتمة الرسالة طبعناها برمتها وجعلناها جائزة السنة الثانية للضياء وهذا نصّ بعض ما جاء فيها

« ليس احتقار الفلاسفة للمال سوى رغبةٍ مستترة في الانتقام لفضلهم من ظلم الدهر فهم انما يزدرون بالخيرات التي حُرموها تذرعاً بذلك الى اتقاء ذل الفقر وتوصلاً الى الفوز بالتبجيل الذي لم يقدروا على تحصيلهِ بالمال

« تدخل الرذائل في تركيب الفضائل كما تدخل السموم في تركيب الادوية الا ان الحزم الذي هو صيدليُّها يعدّل مقاديرها حتى يجعل منها دواء

ناجعاً في دفع اسوآء الحياة

« كثيراً ما كنا نخجل من احمد افعالنا لو اطّلع الناس على الاسباب التي ساقتنا اليها

« رأيُ اعدآئنا فينا اقرب الى الحقيقة من رأينا في انفسنا

« مهما كان الانسان ميالاً الى اهتضام جانب اقرانهِ فهو الى عدم التغاضي عن كاذب فضائلهم اقرب منهُ الى الحيف على صادقها

« الشيبة سكرةٌ لا يُفاق منها بل هي حمّى العقل

« المتكبر وان تنازل عن زخرف الدنيا لا يهمل تكبرهُ بل يستعيض بفخر الزهد عما تركهُ من ابهة المجد

« ليس المصيب من عثر على الصواب اتفاقاً بل من عرفهُ وميزهُ واستحسنهُ

« ارفع درجات الدهآء ان نحسن التعامي عن الحبائل المنصوبة لنا والمرء اسهل ما يكون انخداعهُ اذا حاول ان يخدع غيرهُ

« تصميم المرء على تجنب الخداع كثيراً ما يجعلهُ عُرضةً للانخداع

« من ظنَّ ان لهُ من نفسهِ ما يغنيهِ عن الناس فهو في ضلالٍ مبين واضلُّ منهُ من ظن ان لا غنى للناس عنهُ

« لعلك تجد في النسآء من لم تخادن قطّ ولكنك لا تكاد تجد فيهنَّ من اذا خادنت اقتصرت على خِدنٍ واحد

« البعد يُزهِق المحبة الضعيفة ويزيد العشق القويّ قوةً كالريح تطفئُ الشمعة وتضرم النار

« اثنان يعسر ارضآؤهما من اشتدّ عشقهُ ومن خمدت نار عشقهِ او كادت

« كثيراً ما يباهي الانسان باشدّ الاهوآء اثمًا ما خلا الحسد فانهُ من المخزيات التي يحاول صاحبها ان يخفيها ولا يجسر على الاقرار بها ابداً

« تسرُّعك في وفآء ما نلتهُ من المعروف ضربٌ من انكار المعروف

« ليس شكران النعمة في جُلّ الناس سوى طمعٍ خفيّ في نيل نعمٍ اعظم

« قلما نلق كفوراً ما دمنا قادرين على اسدآء النعم

« ما اكثر الذين يستهينون بالمال وما اقلّ الذين يحسنون بذلهُ » انتهى

واما فصولهُ في الهيئة وما يليها فسننشر بعضها في الضيآء . وهي مع كونهِ لم يأتِ فيها بشيءٍ جديد فانها لا تخلو من احيآء الفاظٍ من مُصطلحات العرب في هذا العلم مما ذهبت باكثرهِ الايام الا من بعض الاسفار الباقية الى هذا العهد في خزائن اوربا مما دل على وفرة اطلاعهِ وامعانهِ في البحث والتقييد

وبقي هنا امرٌ لا بدّ من التنبيه عليهِ وهو انهُ رحمهُ الله كان قد كتب الينا في الايام الاخيرة بنقدٍ مطوّل على ترجمةٍ فرنسوية لكتاب مروج الذهب نُشرت من عهدٍ غير بعيد بقلم واحدٍ من اكابر علمآء الفرنسيس يقال لهُ المسيو بربياي دمينار (١) والنقد المذكور يقع في نحو ثمانين صفحة من مثل صفحات الضيآء وسننشرهُ في هذه المجلة ان شآء الله تباعاً حرصاً على ما فيهِ من الفائدة وتخليداً لفضل مؤلفهِ رحمهُ الله رحمةً واسعة واجزل ثوابهُ في دار النعيم

(١) Barbier de Meynard